عراقيون

من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة

المدى

للإعلام والثقافة والفنون

www.almadasupplements.com

"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

رئيس مجلس الادارة

رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (5574) السنة الحادية والعشرون

الخميس (21) كانون الأول 2023

مئوية

إبراهيم السامرائي

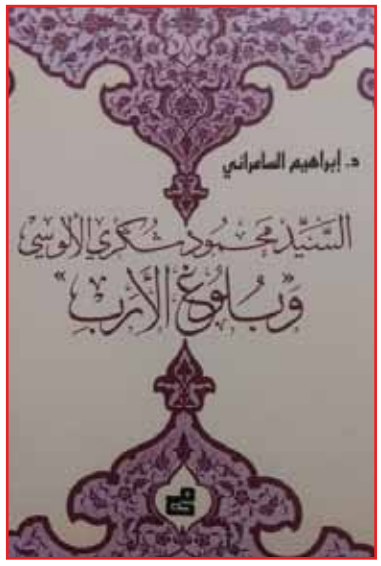

عراقيون
من زمن التوهج
"20 عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"
العدد (5574) السنة الحادية والعشرون - الخميس (21) كانون الأول 2023

الدكتور إبراهيم السامرائي وذكريات باريس

عبد الحميد الرشودي

> ذكر إبراهيم السامرائي أمامي انه ولد في مدينة العمارة تلك المدينة التي نزح اليها جده مع طائفة من النازحين من سامرائيين تفرقوا في حواضر العراق وان دارهم واسعة اشتملت على حجرات عدة اتسعت للعشيرة باكملها تتوزع هذه الحجرات بين اسر الاعمام والاخوال وذراريهم، كانت ولادته سنة ١٩٢٣ وقد ذاق مرارة يتم الابوين وهو حدث فعوضته العناية الالهية بام رؤم حنون هي خالته التي حدبت عليه

وعلى شقيقته التي سرت اليها عدوى المرض من امها وقد حدثني زميل لي في اعدادية التجارة وكان من زملاء السامرائي في دار المعلمين العالمية قال حدثنا السامرائي انه رضع لبان امه وكانت مصابة بالسل.

وقد شقي السامرائي في صباه كما شقي في كهولته وشيخوخته فقد وافاه الاجل في عام ٢٠٠١ في عمان حيث عاش غريبا كئيبا وهكذا حزمه الشقاء والعناء في جميع اطوار حياته فعندما سافر للالتحاق بالبعثة العلمية العراقية صحب شقيقته وخالته الى مصح هلمين في لبنان لعلاجهما من ذلك المرض الفتاك الذي يقتنص فرائسه وضحاياه من الفقراء والبائسين الذين لا يجدون ما ينفقون.

ولما طلب منه صاحبه ومحاوره ان يبسط تلك الصفحات عن تلك العهود المظلمة اجابه السامرائي بقوله: ان لي بهذا وقد عزيت عني عهود وتحولت الى عصر اخر شقبت بخطوبة ولم اجد حاشية، في اسفاري ابسط فيها بعض اضغاث احلام او توشك ان تكون ذلك. ويمضي السامرائي في سرد ايام طفولته حين ذهب الى الكتّاب قبل الذهاب الى المدرسة فهو يذكر انه كان معه في الكتّاب ثلاثون اخرون وكان تلميذ الكتاب يسمى صانع وهذا اللقب كان كذلك يطلق على تلاميذ الكتاب في بغداد. وتكون خاتمة المطاف لصناع الكتّاب هي الختمة (ختمة القران) وهي مرحلة التخرج النهائية. ويمضي السامرائي في وصف عهد الطفولة فيقول: لقد شغلتني همومي وانا صغير حدث فوعيتها وصاحبتني طوال المراحل اللاحقة ورغم ما تجرع فيها من الصاب والعلقم فانه يصفها بانها من (نعيم البؤس) لقد غير عليه زمان – كما يقول: لا نجد من طعامنا الامسكة نتبلغ بها لا تتجاوز الخبز القفار لا ادام له الا بعض الخضر.

وبعد مرحلة الكتاب اخذه اخوه الاكبر الى مدرسة قريبة من دارهم اسمها مدرسة (الكحلاء) وبعد اختبار قبل في الصف الثاني وكان يدرس فيها (القراءة الرشيدة) وهي قراءة مصرية.

ويمضي السامرائي في مذكراته التي تفضل بارسالها الي متكرما بسرد الكتب التي درسها في الابتدائية من جغرافية وتاريخ ونحو وكتاب الاشياء وهو بداية لعلم طبيعي وعلم الصحة.

وبعد ان وصل الى الصف السادس الابتدائي كان عليه ان يؤدي امتحان البكالوريا يقول السامرائي وكان عليّ وعلى صحبي ان نؤديه في البصرة لقضاء ستة ايام فيها وهي مدة الامتحان فعزمنا على السفر بصحبة احد المعلمين وحملنا معنا كتبنا والافرشة والاغطية وكان ذلك في سفينة مسقوفة تسير بمحرك اتسعت لنا ونحن ثلاثون تلميذا. ومن شقوة فتانا انه اصيب بالحمى الشديدة التي تعقبها قشعريرة هي الملاريا ذلك الوباء المنتشر في البصرة. ورغم ما الم به من مرض اثناء الامتحان فقد كان ترتيبه الاول على المدرسة وبدلا من ان يلتحق بالمدرسة المتوسطة التحق بالدرس الديني ومن بعد ذلك التحق بالمدرسة المتوسطة ثم يحدثنا عما استجد في المنهج من دروس مثل مبادئ العلوم وهي تجمع طرفا من الكيمياء والفيزياء والحيوان والنبات.

وبعد نجاحه في الصف الرابع الثانوي لم يلتحق بالصف الخامس بل اثر الالتحاق بدار المعلمين الابتدائية فقبل في الصف الثاني وفي هذه الاثناء كان يهيء نفسه للمشاركة في امتحان البكالوريا طالبا خارجيا مع الاستمرار في دار المعلمين الابتدائية وقد شارك في الامتحان الوزاري وكان متفوقا في نتائجه ولولا اشتعال الحرب العالمية الثانية في ايلول ١٩٣٩ لكان له حق في الانضمام الى البعثة العلمية وبعد تخرجه في مدرسة دار المعلمين وفوزه بالدرجة الاولى عين معلما في مدرسة تطبيقات دار المعلمين الابتدائية النموذجية وقد سمت به همته وطموحه فانتسب طالبا في دار المعلمين العالية قسم اللغة العربية لحبه للعلم وكلفه باللغة العربية وادابها وكانه كان والقدر على موعد في دار المعلمين العالية فقد كانت التربة الخصبة التي انبتت مواهبه فنمت وازهرت وما بعد الازهار الى الاثمار وقد استطاع ان يشق طريقه وان يلفت اليه نظر اساتذته الذين وجدوا فيه طالبا مجدا مثابرا لا جرم انه حاز المرتبة الاولى على جميع طلاب القسم وكان تخرجه بالمرتبة الاولى مما رشحه للقبول في بعثة المعارف العلمية وقد تقدم بطلب الترشيح ولكن الاشرار من موظفي شعبه البعثات اخفوا معاملته تحت بساط الغرفة ليتيحوا الفرصة الى من هو دونه في سلم الدرجات وكان كلما يذهب للاستفسار عن معاملته لم يحظ بغير التسويف والمماطلة حتى مل ويئس وكاد ينسى البعثة وامرها وقد رشح السامرائي للتدريس في كلية الملك فيصل الثاني بطلب من عميدها الانكليزي الذي كتب الى وزارة المعارف اي ترشيح الفائز بالمرتبة الاولى من طلاب دار المعلمين قسم اللغة العربية للتدريس في كلية بغداد وهذا كان تعيينه في هذه الكلية التي لا تعدو ان تكون متوسطة وكان يقبل فيها الطلاب المتفوقون من جميع انحاء العراق فكان يجتمع فيها ابن الشمال وابن الوسط وابن الجنوب وابن الشرق وابن الغرب فكان هذا التجمع الذي يضم ابن الوزير وابن الفلاح وابن التاجر على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية قد احدث لدى الفقراء منهم شعورا عدائيا بسبب التفاوت الطبقي بينهم فاخذ الفقراء منهم يتجهون نحو المبادئ اليسارية ووجد الحزب الشيوعي بينهم بغيته فاخذوا يخرجون بالتظاهرات حتى انهم حطموا اثاث الكلية مما اضطر وزارة المعارف الى غلقها والغائها وقد اتى السامرائي في مسيرته على تفصيل هذه الامور وغيرها من طبيعة المناهج التي كانت تدرس باللغة الانكليزية اما عن امر البعثة فقد ذكر السامرائي انه قد كان ذاهبا ذات يوم وهو يقطع شارع الرشيد اخذ دربه على الرصيف في الباب المعظم اذا انا القى قرب جامع الحيدرخانة الاستاذ الدكتور متي عقراوي فبادرته بالتحية..

فلم يكن منه الا سؤال من فوره: ولم لا تذهب الى الخارج مع من ذهب من زملائك فلان وفلان..؟ فقصصت عليه القصص فقال سادرس ما بقى من طلبات البعثة ثم سالني اين تعمل الان فقلت له في كلية الملك فيصل فاتصل بي في اليوم التالي عن طريق الكلية وطلب مني الحضور الى وزارة المعارف بعد انتهاء عملي فواجهته فسعى سعيه حتى اعاد له حقه السليب بعد ان كاد يضيع بسبب الاحقاد والانانيات يبدأ صفحة جديدة وهي الالتحاق بالبعثة الى جامعة السوربون في فرنسا واول ما لفت نظره واسترعى انتباهه عندما استقل القطار السريع الى باريس قال اخذني العجب ان اغلب الركاب ما ان احتل مكانه حتى شرع يقرأ في كتابه الذي اخرجه من جيبه او في صحيفته التي اعتاد قراءتها وهم في هذه سواسية تجد السيد والسيدة اللذين يبدو انها على خط موفور من الثقافة وكذلك العمال والفلاحين لما وصلوا الى المحطة وجدوا احد موظفي السفارة الذي كلف بمساعدتهم في ايجاد غرف في الحي اللاتيني وكان معه رفيقاه هما صلاح خالص وعلي الزبيدي، فوجد لنا ثلاث غرف في فندق صغير في شارع سنت ميشيل اي القديس ميخائيل ثم تحول الى سكن اخر في شارع المدارس التماسا للاستقرار والسكينة وهكذا فعل صاحباي وكان عليه في بداية الطريق ان ينتسب في السنة الاولى الى معهد

لتعلم الفرنسية فاقبل على الدرس لاتليه متعة دنيا ولم يصرفه عما صمم عليه نشاط للطلاب الذين حملوا على سلوك درب لا تحمد عقباه مما يندرج في السياسة ونحوها.

حدثنا السامرائي عن السوربون فقال: انه مبنى في كلية الاداب المسماة باسم شادها وهو المسيودي لاسوربون وكان لي صلة بمحاضرات عامة اعدت للاجانب من اجل تعريفهم بجوانب من الحضارة الفرنسية يلقيها اساتذة اصحاب اختصاص في الادب والتاريخ وسائر الفنون. حضرت مستمعا لتلك المحاضرات اخذ منها القليل الذي كانت لغتي الفرنسية قادرة على استيعابه وبعد ان انهى السنة الاولى في تعلم الفرنسية تابع المحاضرات التي كان يلقيها الاستاذ دروم في سفر ايوب وكان السامرائي في هذه المحاضرات مع طلاب فرنسيين واخرين من الجزائر وتونس وكان مع عراقيين هم علي جواد الطاهر وعلي الزبيدي وعاتكة الخزرجي.

ثم يستطرد السامرائي فيحدثنا عن المعهد الاسلامي ومكتبة اللغات الشرقية وكلية فرنسا تلك المؤسسة العظمية التي يختم فيها كبار الاساتذة عملهم الجامعي وقد قابل فيها الاستاذ ماسنيون والذي قال له في اول لقاء أسني انت ام شيعي؟ ولم يمهله للاجابة عن سؤاله بما اعقبه من زيادة القول قال: ستقول هذا مستشرق نصراني وان توسعت قلت انه استعماري يحاول ان يفرق بين المسلمين ولكن السامرائي يرد عليه. بلباقة ودبلوماسية بانه لم يذهب الى ما ظن انه يحبه لعلمه وفضله وهو يعرف انه رجل قريب من المسلمين في نهجه سبيل التصوف وقد ظلت صلة السامرائي بماسنيون وكان يزوره مرة في الشهر ويذكر انه زاره مرة فوجد عنده القس عبد الاحد الموصلي الذي يرعى كنيسة شرقية في باريس وقد طلب منه ماسنيون ان يقيم قداسا يتلى ويخص به منصور الحلاج الصوفي فدهش الاب لطلب ماسنيون لانه لا يفهم كيف يقام قداس لرجل مسلم؟

ولما كان لزاما عليه ان يتهيأ لدرس اللغات السامية فبدأ هذه المسيرة بدرس اللغة العبرانية فقصد المعهد الكاثوليكي وانتسب اليه طالبا ملتزما بالحضور التام ودفع اجور الدراسة وزود بالكتب التي اعدت للمبتدئين ويذكر انه كاد يمضي عليه الشهر الاول حتى وجد نفسه قريبا من هذا الدرس ذلك لان العبرانية والعربية ولغات اخرى عدة هي اخوات تجمع بينها – على حد قوله اواصر النسب التاريخي.

ولم يقف في هذا المعهد عند دراسته العبرانية والارامية بل سمت به همته الى درس الحبشية والبابلية والاشورية والسبئية فكانت له من

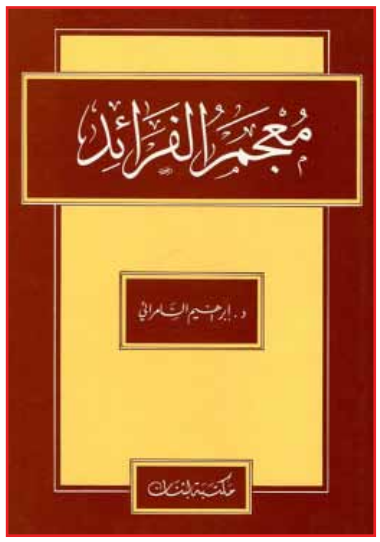

محاضرات الاستاذ دروم ومحاضرة الاستاذ سومير في السوربون فوائد اعانته في درسه وهو يعد رسالته بعد ثلاث سنوات اي في سنة ١٩٥١.

خطوط قديمة

لذلك لم يبخل السامرائي على قرائه بالحديث عن معهد اللوفر وما فيه من الخطوط القديمة والتي وصلت الينا الواح فيها خطوط ونقوش كانت مادة اهل العلم الذين توفروا على حلها وفهمها وفك رموزها وكان للعماء الفرنسيين نصيبهم منها كما كان للالمان والانكليز ثم الامريكيين وغيرهم نصيبهم. كانت كل هذه الجهود في اواخر سنة ١٩٥١ حيث كان السامرائي قد قطع من مسيرته العلمية ثلاث سنوات.

كما كان للمكتبة الوطنية نصيب عند السامرائي

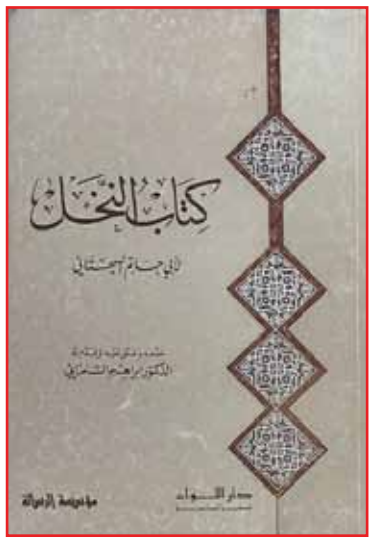

من حديثه الممتع هذا عن ذكرياته اذ قال ليس لاي طالب علم في الدراسات العليا الانسانية الا ان يكون ممن يلازمون هذه الخزانة الشهيرة ليسد حاجته فيها من الكتب والمصادر. وما حديث المرحوم مصطفى جواد الذي اخبرنا كيف انه لازم هذه المكتبة ونقل من مخطوطاتها ما يقوم عشرين مجلدا نحلها عنوان (مصادر الادب والتاريخ) كانت عدته وعتاده فيما استقبل في حياته من بحوث ودراسات.

ولما اكمل رسالته ظل يبحث عن استاذ مشرف فهدي الى الاستاذ بلاشير فلم يبد ضيقا ولكنه عندما رأى بحث الساميات قال للسامرائي حالك كحال مصطفى الشويمي (المصري) فالرسالة تسجل رسميا لدي ولكن الاشراف الفعلي للاستاذ كانتو، لقد كان هذا التدبير في امر الشويمي والسامرائي بسبب ان الاستاذ كانتو على سعة علمه لا يحق له الاشراف لانه ليس من اساتذة السوريون وهكذا انتهى الامر وحلت العقدة المستعصية.

ولما وجد ان المصادر المتيسرة في مكتبات باريس غير كافية فعزم على القيام برحلة الى لندن لاستكمال ما لم يجده من المصادر في باريس مما كتبه المستشرقون الانكليز. ولما ازف موعد المناقشة قدمت الرسالة الى كلية الاداب وكانت السنوات الست التي رسمت في عقد البعثة قد انقضت وكان عليه ان ينتظر اربعة اشهر الى حين موعد المناقشة ولما علم الملحق الثقافي وهو الدكتور سليم النعيمي بالامر اتصل بوزارة المعارف طالبا من مديرية البعثات منحة اربعة اشهر فلم يوفق الى ذلك (وقد علم الاستاذ كانتو بمحنتي وانقطاع مخصصاتي فابدى استعداده ان يحصل لي من معهد البحث العلمي على شيء من المخصصات تمنح لكل باحث فرنسيا كان او غير فرنسي وهنا ياتي القدر بالفرج فقد وصل الى باريس نوري السعيد في طريقه الى لندن فزار السفارة وبدأ يسأل العاملين فيها ولما سأل الدكتور النعيمي عن عمله فقال له بجرأته المعروفة وصراحته اني غير سعيد في عملي هذا فقال له السيد نوري السعيد وما سبب ذلك فقال: ان وزارة المعارف في بغداد لا تيسر في مهمتي فهي ترفض ما اكتبه حين ارى ان كثيرا مما اطلبه هو حقي ينبغي ان احصل فيه على موافقة رسمية فقال السيد نوري السعيد، اذكر لي اخر طلب لك رفضوه فقال النعيمي ان الوزارة رفضت طلبا طلبت فيه ان نوافق على منح الطالب الجاد ابراهيم السامرائي مخصصات اربعة اشهر تاخذ فيها عن غير تقصير منه بل ان الامر هو انه تاخر لان جامعة السوريون لم تستطع تعيين اعضاء لجنة المناقشة فلم يكن من السيد نوري السعيد الا ان سجل الاسم وخصوصية المسالة ولما عاد الى بغداد جاءت الموافقة السريعة.

لقد القت اللجنة برئاسة الاستاذ ليفي بروفنسال وعضوية الاستاذ بلاشير وهو المشرف الرسمي والاستاذ شارل بلا ثم الاستاذ لاووست الذي استدعي من جامعة ليون واستغرقت المناقشة سبع ساعات ثم انصرفت اللجنة لبضع دقائق ثم عادت فاعلن رئيسها القرار بمنح المدارس ابراهيم السامرائي درجة دكتوراه الدولة برتبة الشرف الاولى وبعدها قفل راجعا الى بغداد ليجد مكانه في قسم اللغة العربية في كلية الاداب ليدرس مادة النحو لطلبة السنة الاولى ومادة فقه اللغة لطلبة السنة الثالثة واللغة العبرية لطلبة السنة الرابعة واللغة السريانية لطلبة قسم الاثار وكان ذلك في الثالث والعشرين من اذار من سنة ١٩٥٦.

إبراهيم السامرّائي والمدرسة الكرملية في اللغة

صلاح نيازي

تخرّج من مدرسة العلامة انستاس الكرملي مصطفى جواد وإبراهيم السامرائي، وعلى الرغم من أن مصطفى جواد متخصص في تاريخ الناصر لدين الله العباسي، إلّا انه عُرف، اكثر ما عرف، بمباحثه اللغوية ولَا سيما قل ولا تقل، فأرهق اللغة أكثر مما يجب، ولم يكن على صواب في أكثر الأحايين، كما سنرى.

امّا السامرائي، فكان إبناً باراً إن صح التعبير للمدرسة الكرملية، تتلمذ عليها ثم أصبح استاذاً فيها، موسّعاً في مناهجها. وهو على عكس مصطفى جواد، اهتمّ بالتطور الاجتماعي للغة، ولم يجعلْها مهمازاً يرعب به القرّاء إلاّ قليلاً.

على أية حال لم يسلم من مصطفى جواد حتى كبار العلماء القدامى من أمثال الزمخشري، ولا الكتّاب الكبار من معاصريه، ولا حتى ذوو قرباه، أعني الكرملي نفسه. وبسببه نقرأ الآن أبواباً في صحفنا العراقية خاصة على نمط قل ولا تقل يحررها أحياناً من لا علم له بعلوم العربية، ومن لا يمتلك ناصيتها وهكذا شاعت بيننا روح التسلط، فازددنا فرقة على فرقة، واستعلاءً على استعلاء.

في كتاب ابراهيم السامرائي الأب انستاس ماري الكرملي، وهو كتاب مهم للغاية، مقتطفات من مقالات الكرملي نفسه. وفي الحواشي تصويبات لغوية لأخطاء وقع فيها الكرملي أو شُبِّه له. عجبت أشدّ العجب، لأنّ لغة السامرائي، على سعتها وعمقها، ليست بالدرجة التي تؤهله لتصويب الكرملي. ولكن بطل عجبي حينما قرأت في الحاشية أن تلك التصويبات أخذها السامرائي من كتاب(المباحث اللغوية في العراق) لمصطفى جواد. قلتُ سابقاً لم يكن مصطفى جواد على صواب في معظم الأحيان، حتى عنوان كتابه (المباحث اللغوية في العراق) فيه تجاوز لغوي إذا كلْنا بمكياله. فالأماكن، ومنها المدن بالطبع، لا تُجَر إلاّ بحرف الباء كقاعدة فنقول: بالعراق، ولا نقول في العراق (باستثناء الضرورات الشعرية). والشئ نفسه ينطبق على عنوان كتاب السامرائي التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق.

يعترض مثلاً مصطفى جواد على تعبير: علماء اختصاصيون ويقول: الفصيح مختصون أو متخصصون ويعلل ذلك بقوله: لانّ اسم الفاعل يغني عن اضافة المصدر أي نسبته بالباء، ولكن ما أكثر ما قالوا: الإخباريون، أو الأنتحاريّون أو التكفيريون نسبة إلى المصدر. كذلك خطّأ الكرملي باستعمال كلمة معاجم، والصواب في نظره إمّا معجمات أو معاجيم. ولكن معاجم وردت في قاموس المعجم الوسيط، أماّ عن قول الكرملي: يحدو بنا إلى مجاراة الأمم فقال مصطفى جواد: الصحيح يحدونا على، وينقل ما قاله الزمخشري في أساس البلاغة: وحدوته على كذا، لكنْ كلاهما جائز. جاء في قاموس المحيط: حدا الإبل وبها. وهذا ما نصّ عليه المعجم الوسيط. والغريب أنه أنكر أن يكون جمع كُفء: أكفاء وعنده يجب أن يكون كفاة، اذ لا وجود لأكفاء في اللغة. جاء في قاموس تاج العروس: جمع كفء: أكفاء وهذا ما نصّ عليه الفيروز أبادي. وهل ننسى قول المتنبي في كافور حين بنى داراً:

إنّما التهنئات للأكفاء ولمَن يدّني من البُعداء

وأغرب ما قرأته من تصويبات مصطفى جواد، ما قاله بشأن كلمة بعض، وقد وردت مرتين في إحدى مقالات الكرملي وإذا كنّا نجهل بعض الألفاظ اليوم فقد نعرفها في يوم آخر.

فقال يجب أن تكون قسماً من الألفاظ معللاً ذلك: لأن: بعض غير مكررة فهي تدلّ على لفظ واحد. اما الجملة الثانية فهي ولقد سمعنا مراراً بعض الجهلة... فقال مصطفى جواد يجب أن تكون: جماعة أو فريقاً من الجهلة لأن البعض هنا تعني واحداً.نصّت كل القواميس القديمة على أن بعض الشئ: طائفة منه قلّتْ أو كثرتْ. ولكنهم اختلفوا فقط هل يجوز تعريف بعض بالألف واللام فتقول: البعض. كبار اللغويين لم يجوّزوا ذلك، وعليه يكون استعمال البعض لدى مصطفى جواد شاذّاً عما تعارف عليه فطاحل اللغة.

قلت أعلاه لقد كان السامرائي إبناً باراً للمدرسة الكرملية، تتلمذ عليها ثم أصبح أحد اساتذتها، موسعاً في مناهجها، تحقيقاً وتأليفاً وترجمة، ولكن قبل النظر في بعض مؤلفات السامرائي، لا بدّ لنا من النظر إليه على أنه عالم بعلم اجتماع اللغة، بالدرجة الأولى، وعلى أنه إنما كان يسعى إلى إغناء القواميس العربية بما فاتها من آلاف الكلمات الفصحى التي أهملتها. ففي هذا المجال حقق، مع الدكتور مهدي المخزومي قاموس العين بأربعة أجزاء ضخمة لا بدّ أنه أخذ من حياتهما سنوات طويلة وسهراً مضنياً. كما حقق كتاب النخل لسهل بن محمد السجستاني. في هذا الكتاب الذي يُعدُّ أفضل من كتاب النخل للأصمعي. مئات الكلمات النباتية لا تجد لها أثراً في قواميسنا القديمة، وهو إلى ذلك دراسة تطبيقية في كيفية زراعة الفسائل وكيفية الاعتناء بالنخيل، وما هي أجود انواعه، وفي ايّ البلدان العربية والإسلامية يزرع.

ولأن السامرّائي كان يسعى إلى إغناء القواميس العربية، كما قلنا سابقاً، فقد حقّق كتاب تمام فصيح اللغة لأحمد بن فارس القزويني، ونزهة الألباء لابن الانباري، وكتاب الامكنة والمياه والجبال للزمخشري. ولكن من أهم مؤلفاته في هذا الباب، أي إغناء اللغة، قاموسه الموسوم بـ معجم الفرائد الذي نشره عام ١٩٨٤. في هذا المعجم تظهر موهبة السامرائي في البحث والتنقير على أشدها تالقاً ووضوحاً. خطته في هذا المعجم الصغير بالمقارنة، هي أنْ يتناول كلمة، فيعطي معناها القديم وأبنيتها، وما علاقاتها باللغات السامية إن وجدت، وكيف تستعمل في الوقت الحاضر، وكيف تدور على ألسنة العوام. فهو يأخذ مثلاً كلمة أبّ (بتشديد الباء) فيذكر معناها القاموسي: الكلأ ثم يذكر معناها في التنزيل العزيز وفاكهة وأبّا (٣١ سورة عبس) ويختمها بتعليق من عنده فيقول: ان الأبّ من كلم التنزيل الذي لم يكن العرب قد ألفوا... وأن الأبّ من الكلم السامي القديم فأنت تجد الأصل القديم في البابلية والأشورية كما تجده في العبرانية والآرامية وبعد ذلك يتبسط في اشتقاقات الكلمة في المعجم القديم فيذكر: أبّ للسير يئبُّ ويؤبُّ أبّاً وابيباً وابابة بمعنى تهيأ للذهاب وتجهّز... ويعلق ثانية فيقول: لعلّ هذا الاتساع في العربية انطلاق من معنى المرعى لهذه الكلمة. ثم إني أتوقف قليلاً لأومئ إلى أن الكلم أوب وإياب والفعل آب من الأصل القديم.

على هذا المنوال يفسّر كلمة ريش. فيقول وراشه الله ريشاً: نعشه. وتريّش الرجل وارتاش: أصاب خيراً فرئي عليه... والرياش والريش: الخصب والمعاش والمال والأثاث واللباس الحسن الفاخر. وفي التنزيل العزيز: وريشاً ولباس التقوى (٢٦ سورة الأعراف). ثم يعلّق على ذلك فيقول: لا بدّ أن يكون الاصل في كل هذا: الريش وهو في كسوة الطائر...

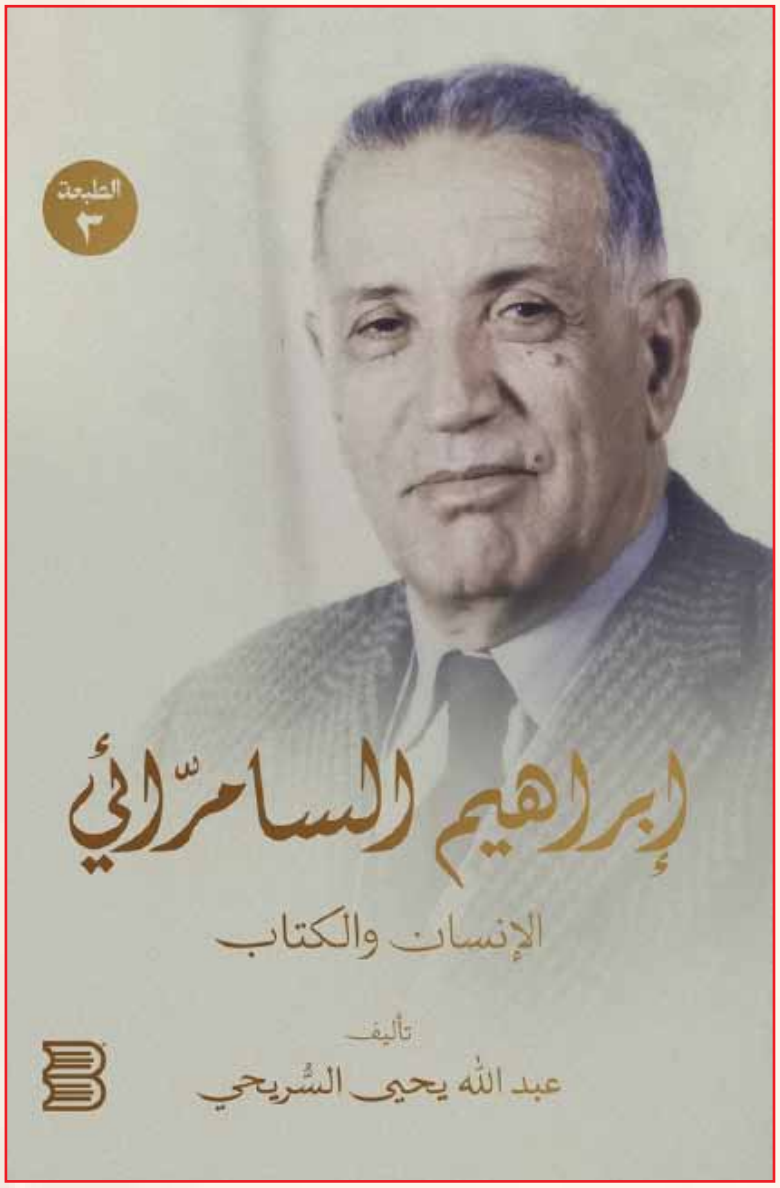

ومن المفيد أن أذكر أن العامية احتفظت دون الفصيحة المعاصرة بشئ من هذه الاستعمالات، يقال مثلاً: فلان ريّش، أي حسنت حاله وظهر أثر النعمة عليه (كذا).

ولكن رغم نفاسة هذا المعجم، إلاّ أنه كأيّ معجم من طرازه لا يخلو من هنات هينة، قد لا تليق. فهو يقول عن الحلبة في فصيح العربية تعني أرض السباق أو الرهان مع العلم أنه هو وحده المعروف المشهور.

جاء في قاموس المحيط: والحلبة بالفتح الدفعة من الخيل في الرهان وخيل تجتمع للسباق.. وجاء في قاموس تاج العروس للزبيدي: حلب (القوم) يحلبون (حلباً وحلوباً: اجتمعوا وتأبوا من كل وجه. وذكر الزبيدي كذلك: فلان يركض في كل حلبة من حلبات المجد (والحلبة بالفتح: الدفعة من الخيل في الرهان خاصّة (د) الحلبة خيل تجتمع للسباق من كل أوب.

ينفي السامرائي وجود: المدّة بمعنى القيح. ويقول وهذه من الكلم العامي في عصرنا ولا نعرفه في العربية. الغريب أن يصدر كلام كهذا عن باحث كالسامرائي لأن المدّة بمعني القيح موجودة في كل القواميس القديمة والحديثة. وكذلك ينفي وجود: ضكّ بمعنى الضيق ويعلق على ذلك بالقول: وهذا مما بقي في العامية ولا نعرفه في اللغة الفصيحة. ولكن كيف لا نعرفه في اللغة الفصيحة؟ جاء في قاموس الفيروز ابادي: ضكّه الأمر ضاق عليه، والشئ ضغطه. وجاء في قاموس المعجم الوسيط: ضكّه ضكّاً ضغطه... وضكّ الأمر فلاناً ضاق عليه وكربه.

هناك كلمات أخرى مماثلة ينكر فصاحتها، مع العلم أنها موجودة في القواميس المعتبرة هل هذا سهو منه؟ ولكنه يتكرر. وكمثال آخر في كتابه: اللغة والحضارة يشرح كلمة البسيط على الوجه التالي:

كلمة البسيط: يريدون بها السهل ضدّ الصعب فيقال مسألة بسيطة أي هيّنة لا صعوبة فيها وهم بذلك يوجدون ما يقابل الكلمة الأعجمية، وهذا الاستعمال جديد من غير شك لأن البسيط في فصيح العربية هو المبسوط أي الممتد فالأرض بسيطة والسهل بسيط.

جاء في قاموس المعجم الوسيط: البسيط: ما لا تعقيد فيه. وقال الزبيدي: واستعار قوم البسيط لكل شيء لا يتصوّر فيه تركيب وتأليف ونظم. وجاء في قاموس لغة العرب: البسيط من الامور: ما كان سهلاً هيّناً.

الغريب، ما وقع فيه مؤلفو المعجم الوسيط وهم يشرحون المعاني الأخرى لكلمة البسيط فقالوا: (والبسيط أحد بحور الشعر الكثيرة الشيوع قديماً وحديثاً. ويؤسس الشطر منه على النحو التالي: متفاعلن، متفاعلن، متفاعلن. والمعروف أن هذه هي تفاعيل بحر الكامل وليست تفاعيل بحر البسيط. امّا تفاعيل بحر البسيط فهي مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن).

ولإكمال صورة السامرائي التي أبتدأت بها على أنه كان معنياً باثراء اللغة، لا بدّ من ذكر ثلاثة كتب له في الأقل، هي من بديع لغة التنزيل ومعجم المتنبي ومن معجم عبدالله بن المقفع. للأسف لم يقع في يدي الكتابان الاوّلان إلاّ انني وجدت كتاب (من معجم عبد الله المقفّع) من أنفع الكتب في بابه. تناول السامرائي في هذا الكتاب، كلاّ من كليلة ودمنة و الأدب الصغير و الأدب الكبير فشرح معظم المصطلحات التعبيرية الجديدة التي ابتكرها ابن المقفع. وهي مصطلحات لا يمكن الاستعانة بأيّ قاموس على فهمها فهماً صحيحاً.

ذكرنا سابقاً أن إبراهيم السامرائي باحث في علم اللغة الاجتماعي، وفي هذا الحقل بالذات موطن تجليه وتفرّده، وقد يكون من البناة الرواد الاوائل الذين انتقلوا من السماع

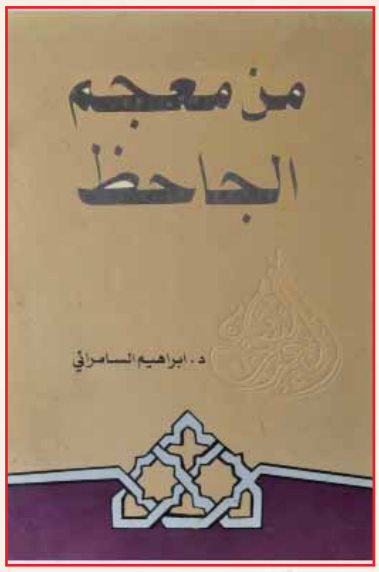

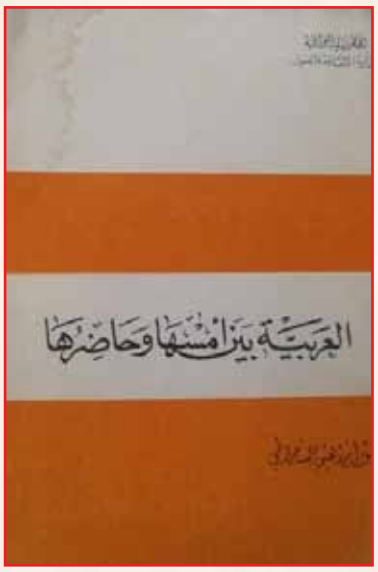

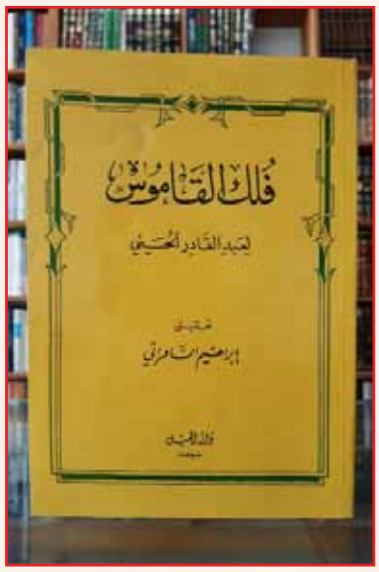

والرواية والكتب، إلى الدراسات الميدانية، للهجات العامية. ويقف في الصدارة من مؤلفاته في هذا الباب، كتاب (التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق) الذي نشره عام ١٩٦٨. يقول الدكتور السامرائي، وهو في معرض تبريره لتأليف هذا الكتاب: وأظن أننا معاشر العرب جدّ متأخرين في هذا اللون (أي التوزيع الجغرافي) من الدرس اللغوي، وأكبر الظنّ ان سبب عزوف المعنيين عن هذا الدرس كرههم لما يباشره ابناء العربية من الإعراب بالألسن الدارجة وهو ما ندعوه باللهجات العامية، وكانه يخيّل إليهم أن البحث في هذا الموضوع يبعدهم عن العربية الفصيحة أو قل يبعدهم عما يحرصون عليه من التراث الزاهر. ولكني أذهب إلى غير هذا، وان العلم بالواقع اللغوي من العلوم الإنسانية التي تهُم الباحث اللغوي، كما تهّم الباحث في علم الاجتماع.

لم يدخل السامرائي في هذا الكتاب رأساً إلى اللهجات العراقية، انما مهّد لها بتقسيم جغرافي للعراق، وأردفه بتقسيم لسكان العراق من قديم الزمان إلى وقتنا الحاضر.

أي ابتداءً من السومريين والأكديين والبابليين والأشوريين، مركزاً بالدرجة الأولى على لغاتهم. وكأن السامرائي يؤمن عملياً أن اللغة أية لغة كائن اجتماعي خاضع لكل شروط التطور، وما اللغة العراقية بشاذّة عن غيرها، ولا بدّ من أن جذروها ضاربة في القدم، وهذا كما يبدو هو المبرر الوحيد لتبسّط السامرائي في اللغات القديمة المنقرضة، أو محاولته الموفقة في إيجاد الصلة بين اللغة العراقية، واللغات السامية من جهة واللغة العربية الفصحى من جهة أخرى.

درس السامرائي في هذا الكتاب ميدانياً تقريباً: العربية الشمالية، واتخذ من الموصل مثالاً لها، والمنطقة الوسطى متمثلة بلهجة بغداد، ثم اللهجة الجنوبية كما هي عليه بالبصرة.

يمكن اَعتبار هذا الكتاب تدشيناً جديداً في دراسة اللغة، ومحفزاً لدراسات مشابهة أشمل وأدق، مع توسيع قاموس اللغة العراقية الذي سرده السامرائي.

وفي كتاب طريف آخر، يأتي السامرائي في أحد فصوله: اللغة والحضارة على مسرد ممتع لبعض التعبيرات الشائعة في الصحف والمجلاّت ونتصورها من اللغة العربية وما هي كذلك، وانما هي ترجمات لتعبيرات أجنبية استسيغت فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من لغتنا. من هذه التعبيرات مثلاً، كما أوردها السامرّائي:

ذر الرماد في العيون / حرق البخور لسيّده / أعطى وعداً / حجر عثرة / مع الأسف أخذ بنظر الاعتبار /لتقلب صفحة جديدة / عاصفة من التصفيق / حجر الزاوية / طلب يدها / نحت الدرس / إصلاح جذري / يعّلق أهمية خاصة / لا يرقى إليه الشك / وجهات النظر / يضحك على الذقون... الخ.

كان بودّي أن اتوقف طويلاً عند كتابه العربية بين أمسها وحاضرها وهو من أهم بحوثه في اللغة، حيث درسها دراسة تاريخّية مستجلياً اصولها وقواعدها. ففي الفصل الأول يقف وقفة مدفق في الشعر الجاهلي مستنبطاً، ان العناية بالشعر والحرص على روايته وحفظه ودرسه كان بداية العناية باللغة ودرسها وجمعها والاهتداء إلى نوادرها وأوابدها. ثم عالج في الفصل الثاني: رواية اللغة (الرواية بالبصرة)، وكيف استند اللغويون على الأعراب لاستنباط القواعد، وكيف شاع بين الرواة الانتحال، حتى قال الأصمعي: كل شيء في أيدينا من شعر اَمرء القيس فهو عن حماد الرواية إلاّ شيئاً سمعناه من ابي عمرو بن العلاء وفي الفصل الثالث: المرويّ عند البصريين، يسهب السامرائي في شرح الغريب والنوادر ويتابع منشأهما وتطوّرهما... وهكذا تتوالى الفصول.

في الباب الثاني، يتناول السامرائي في أول فصل، اللهجات العربية وما أسباب نشأتها، ولماذا أصبحت لهجة قريش هي المفضلة؟ ومن أيّ اللهجات استنبط اللغويّون قواعدهم ولماذا؟ وحين نصل إلى الفصل الثاني المعنون: اللغة بين البداوة والحضارة، يكون السامرّائي قد وضع يده على أهم نقطة في مفهوم الحضارة، ألا وهي النبات، والفلاحة. وهنا سرد المؤلف جملة من كتب للنبات وكتب للشجر وكتب للكرم وكتب للنخل وكتب أخرى تتصل بالزرع والأرض وما يلزمها من مواد.

يبدو أن الصراع بين البداوة والحضارة كطريقة للعيش، انعكس مباشرة على الأسلوب الأدبي لكلا الفريقين. ولأن الإسلام شجّع على الفلاحة والزراعة أصبحت لغة العلم هي لغة الحضارة الجديدة، وكأن الصراع بات بين لغة بدوية ادبية، وبين لغة حضرية علمية. على أية حال لا يمكن استعراض هذا الكتاب الثمين فصلاً فصلاً للأسف، ولكن لا بدّ من التنويه بما انتبه إليه السامرائي دون سواه، ألا وهو صيغة فاعول بين السريانية والعربية.. فليس هو من أبنيه سيبويه، مثلاً، ولم يفرد له أحد منهم باباً ولا خصّه بكتاب كما فعل الصاغاني في كتاب ما جاء على فَعال وكما فعل في كتاب يعفول.

وضع المؤلف قاموساً للألفاظ التي جاءت على صيغة فاعول حسب الحروف الأبجدية، منها على سبيل المثال: بارود، وآلوس على نهر الفرات وذكرها ياقوت، وباسور الداء المعروف. والباكور وثالوث وجاثوم وجالوت وحاشوش وحاصود... ألخ.

على أية حال قلنا إنّ المرحوم إبراهيم السامرائي كان تلميذاً في المدرسة الكرملية، ثمّ أصبح استاذاً فيها، وبه اخْتُتمتْ هذه المدرسة الفريدة، لتبدأ بالعراق مدرسة لغوية جديدة هي مدرسة اللسانيات.لكن كم نحن مدينون إلى المدرسة الكرملية في وعينا اللغوي، وفي التلاوين المستحدثة في أساليبنا الأدبية، ومصطلحاتنا. مع ذلك لا بدّ من القول إنّ الفوائد الجمة التي جنيناها من المدرسة الكرملية ربما كانت ستتضاعف، لو أن أعضاءها انتبهوا إلى ما للغة السومرية من أواصر متينة مع اللغة العربية ولا سيّما من حيث المصطلحات الدينية، ولم يقتصروا على ايجاد الوشائج بين اللغات السامية فقط.

بالإضافة إلى ذلك فقد اعتقد الكرمليون أن اللغة الفصحى أقدم من العامية أو هما توأمان، كما قال الكرملي. إن أسبقية الفصحى مسألة فيها نظر، ومنطقياً لا يمكن أن تكون لها الأسبقية. وعلى هذا الافتراض، يمكن عكس المعادلة فندرس العامية أولاً، ومن ثمّ نتعرف على كيفية تطورها إلى الفصحى.

أخيراً كثيراً ما يعزو اللغويون الكرمليون الأخطاء الصرفية والنحوية الشائعة إلى المترجمين السوريين، واللبنانيين على وجه الخصوص. لكنّ الأجدر أن يلتفتوا إلى أصل تلك الأخطاء أعني القواميس الانكليزية العربية، فهي كالمعدة، مهمة ولكنها بيت الداء.

• من الكلمة التأبينية التي ألقيتْ في أربعينية المرحوم السامرّائي بديوان الكوفة – لندن

الدكتور إبراهيم السامرائي، عالما واستاذا وعصاميا ووطنيا كبيرا

د. حسين الهنداوي

كنت قد عرفت الدكتور إبراهيم السامرائي (١٩٢٣-٢٠٠١) للمرة الاولى اثناء سنوات الدراسة في كلية الآداب بجامعة بغداد بين ١٩٦٦ و١٩٧٠، اي خلال ما بات يعرف بـ"العصر الذهبي" للحياة الاكاديمية في العراق الذي أطاح به وصول الطغمة البعثية الى السلطة في بغداد. كان حظا كبيرا بذاته، تزامن وجود عباقرة اللغة العربية الالمع، في تاريخ العراق وربما في العالم العربي، معا في نفس الوقت ونفس القسم وفي مقدمتهم الدكتور إبراهيم الوائلي والدكتور حسين محفوظ والدكتور محمد مهدي المخزومي والدكتور علي جواد الطاهر وسواهم فضلا عن الدكتور إبراهيم السامرائي نفسه الذي كانت روحه "التقدمية" في نظرنا تشجعنا على الاقتراب منه، وقد اشتكيت اليه مرة من ان بعض أساتذة العربية في الكلية ينحازون الى تلاميذهم عند منح الجوائز في المنافسات الشعرية، فأجابني مع ابتسامة طيبة ان "ذلك يحصل للأسف دون قصد".

بعد التخرج من الجامعة كنت اتابع نشاطاته العلمية الكثيفة عن بعد، ولم اكن أتصور بانني قد التقي به مجددا لولا الصدفة الثمينة. ففي عام ١٩٩٢ وبينما كنت في مهمة عمل لمنظمة العفو الدولية في العاصمة اليمنية العريقة صنعاء فوجئت ببهجة بوجودي وجها لوجه مع استاذي الجليل القادم مثلي في افتتاح معرض فني اقامته الجامعة تلك للفنان التشكيلي والشاعر العراقي الصديق الراحل محمد سعيد الصكار بدعوة من رئيس الجامعة الشاعر اليمني الدكتور عبد العزيز المقالح وبحضور نخبة من الادباء العرب. وقد اصر الدكتور إبراهيم السامرائي على أخذنا، الراحل الصكار وانا، الى شقته البسيطة حيث استقبلتنا عقيلته الكريمة بترحيب وكرم ما بعده كرم. في ذلك اللقاء الذي استغرق عدة ساعات كان الدكتور السامرائي يتفجر خلاله الما لما تعرض له الشعب العراقي من قمع وتدمير وغدر وقد ادهشني بحرارة مشاعره الوطنية والتقدمية وحبه لوطنه، وبعمق تحليلاته وسعة متابعاته للتطورات السياسية في العراق والمنطقة. ولئن انس لن أنسى انه شدّد عليّ خلال لقاء لاحق في بيته بالتزام الحذر الشديد خلال وجودي في صنعاء من حبائل الأجهزة القمعية البعثية المتغلغلة بقوة في اليمن الشمالي آنئذ والتي كانت تراقبه عن كثب لمجرد احتفاظه بمسافة حذر معها.

لقد عاش الدكتور إبراهيم السامرائي عيشة كفاف أينما حل وارتحل، وظل عصاميا ووطنيا وتقدميا وانسانيا ومعتدلا باصرار حتى آخر رمق من حياته، وقد صدق جدا الدكتور خلف رشيد نعمان بقوله: "أما آن لهذا العالم المكدود والمُتعب والمُغترب الذي يتنقل في بلاد الله من غربة الى اخرى وقد تجاوز الثمانين أن يستريح في بلده، وأن يُكرّم فيه كما يُكرم العلماء الأفذاذ، ولا نريد ان يكتب التاريخ عنه: أنّه ظل بعيداً عن وطنه"..

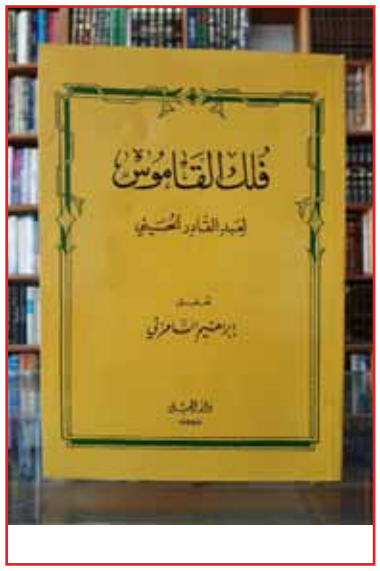

اما عن تاريخه الحياتي والعلمي، فقد كتب الكثير عنه وفي كل بلاد العالم كأحد علماء اللغة المعدودين في العالمين العربي والإسلامي، ومرجعية لغوية كبيرة شهدت له مجامع اللغة العربية وكبار العلماء.. حيث جعل اللغة العربية همّه وشاغله الابداعي الشاغل طوال سني حياته...

ولد الدكتور ابراهيم بن احمد بن راشد السامرائي في مدينة العمارة جنوب العراق عام ١٩٢٣ في عائلة أصولها من مدينة سامراء. وكانت طفولته قاسية حيث توفي والداه ولم يبلغ العاشرة بعد. تلقى تعليمه الابتدائي والاعدادي في العمارة ثم اكمل دار المعلمين الابتدائية و دار المعلمين العالية ببغداد ودرس في كلية الملك فيصل عام ١٩٤٦-١٩٤٨ ثم فاز ببعثة علمية الى جامعة السوربون بباريس عام ١٩٤٨. وقد نال الدكتوراه عام ١٩٥٦ في تخصص فقه اللغة والنحو المقارن باشراف جان كانتينو وبلاشير. وعقب تخرجه من السوربون، عمل الدكتور السامرائي مدرسا في كلية الاداب والعلوم ببغداد ثم انتدب للعمل في كلية الاداب بتونس لمدة سنة عاد بعدها الى كلية الاداب ببغداد ثم تنقل بين بيروت وعمان وبنغازي والجزائر والرباط والكويت والسودان مدرسا في جامعتها بين الاعوام ١٩٦٥ – ١٩٧٥، ثم عاد الى كلية الاداب جامعة بغداد حتى احيل على التقاعد عام ١٩٨٠، ليعمل بعدها مدرسا في الجامعة الاردنية بين عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٧، ثم في جامعة صنعاء بين ١٩٨٧و١٩٩٦ قبل ان يستقر في عمان حتى وفاته يوم الاربعاء ٢٠٠١/٤/٢٥. وقد تتلمذ الدكتور ابراهيم السامرائي في بداية مسيرته العلمية على يد العلامة طه الراوي ثم الدكتور مصطفى جواد والمؤرخ عبد العزيز الدوري والمستشرقين الفرنسيين جان كانتينو وبلاشير..

واشتهر السامرائي عالما لغويا معجميا يؤمن بتطور اللغة فكان مدققا ومصححا ومضيفا اضافات في خدمة العربية فكان له في هذا المضمار كتب كثيرة منها (دراسات في اللغة) و(مباحث لغوية) و(التطور اللغوي التاريخي) و(التوزيع اللغوي الجغرافي العراق) و(في

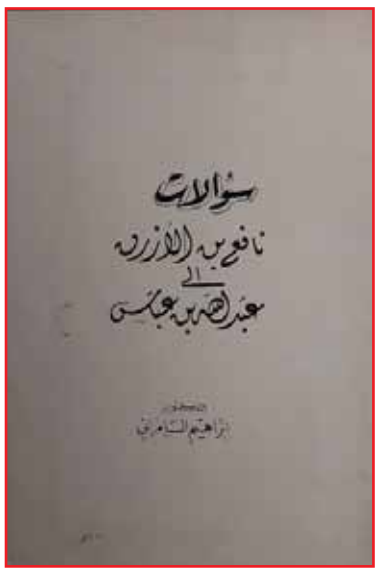

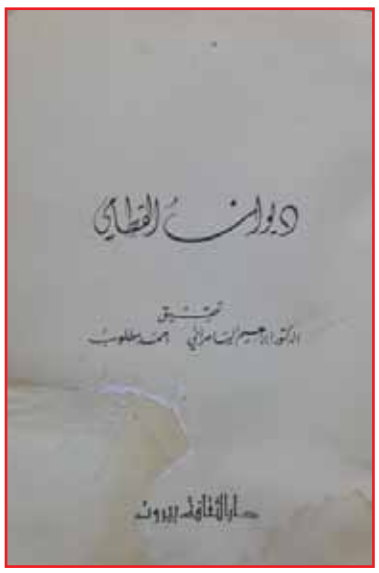

الصناعة المعجمية) و (ومعجميات) و(الدخيل في الفارسية والعربية والتركية) و(المعجم الوجيز في مصطلحات الاعلام) و(معجم الفرائد) و(معجم دراسة في العربية المعاصرة) و(نظرات في المعجم الكبير) بالاشتراك مع الشيخ حمد الجاسر وكتاب العين المنسوب للفراهيدي تحقيق بالاشتراك مع الكتور مهدي المخزومي. اضافة الى كتب كثيرة منشورة في المجلات والدوريات العربية والعالمية وكان السامرائي نحويا من كبار نحاة عصره واثبت مفهوما جديدا في نشأة النحو خالف به جمهرة الدارسين في النحو قبله. وكان لاتساع ثقافته واطلاعه الشامل المتخصص على مواد النحو العربي موروثه ومولده اثر في تكوين منهجه. وكان الدكتور ابراهيم السامرائي اديبا معاصرا يتمثل ادبه في كتبه وفي مجال الشعر فقد حلق به عاليا لكن قل من يعرف ذلك وهو، كما وصف احيانا، شاعر العلماء وعالم الشعراء كما كان ناقدا ايضا له عشرات المقالات في نقد الكتب وبيان نواقص مؤلفيها ومحققيها كما كان محققا اذ حقق منفردا او مشاركا نحو ثلاثين كتابا. والدكتور السامرائي الراحل قضى ايامه بين الكتب قارئا ومؤلفا ومحققا ومدرسا ومترجما استغرقه هوى الكتب وتقديرا لعلمه وفضله انتخب عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٩٠، ومجمع اللغة العربية الاردني ومجمع اللغة العربية بدمشق والمجمع العلمي الهندي الا ان المدهش المؤلم انه لم ينتخب عضوا بالمجمع العلمي العراقيبيد انه و وتقديرا لعلمه اختير ضمن نخبه من العلماء للأشراف على تحقيق كتاب تاج العروس ومراجعة تحقيقه مخلفا مكتبة لغوية فريدة.

وللدكتور إبراهيم السامرائي نحوٌ من خمسين كتاباً، ومن التّحقيقات ما يربو على العشرين، أهمها:

المؤلَّفات:

١- الأب أنستاس ماريّ الكرمَلي وآراؤه اللُّغوية. ٢- الأعلام العربية. ٣- إعلام الوَرَى فيما نُسب إلى سامَرّا. ٤- "بناء المقالة"، لابن طاوس. ٥- التّطور اللُّغوي التّاريخي. ٦- التّكملة للمعاجم العربية من الألفاظ العباسية. ٧- التّوزيع اللُّغوي الجغرافي في العراق. ٨- حديث السنين (سيرة ذاتية). ٩- حنينٌ إلى الكلم الضّائع (ديوان شعر). ١٠- الدّخيل في الفارسية والعربية والتركية. ١١- دراسات في تراث أبي العلاء المعرّي. ١٢- دراسات في اللغتين السريانية والعربية. ١٣- رحلةٌ في المعجم التّاريخي. ١٤- رسائل ونصوص في اللغة والأدب والتاريخ. ١٥- السيد محمود شكري الألوسي وبلوغ الأرَب. ١٦- العربية تاريخ وتطور. ١٧- الفعل.. زمانه وأبنيته. ١٨- فقه اللُّغة المقارن. ١٩- في الصّناعة المعجمية. ٢٠- في اللَّهَجات العربية القديمة. ٢١- في مجلس أبي الطيب المتنبي. ٢٢- في المصطلح الإسلامي. ٢٣- لغة الشعر بين جيلين. ٢٤- لفيفٌ وأشتات. ٢٥- المجموع اللَّفيف. ٢٦- المدارس النحوية. ٢٧- مع المصادر في اللغة والأدب. ٢٨- مع المعري اللغوي. ٢٩- مع نهج البلاغة. ٣٠- معجم الفرائد. ٣١- المعجم الوجيز في مصطلحات الإعلام. ٣٢- معجم ودراسة في العربية المعاصرة. ٣٣- المقترح في المصطلح. ٣٤- من أساليب القرآن. ٣٥- من بديع لغة التنزيل. ٣٦- من سعة العربية. ٣٧- من الضائع من معجم الشعراء. ٣٨- من معجم الجاحظ. ٣٩- من معجم عبد الله بن المقفع. ٤٠- من معجم المتنبي. ٤١- النحو العربي نقد وبناء.

التّحقيقات:

"الأمكنة والمياه والجبال"، للزمخشري – ديوان الجواهري – ديوان القُطَامي – رحلة ابن عابد الفاسي – "الزهرة"، لمحمد بن داود الأصبهاني، بالاشتراك مع الدكتور نوري القيسي – "فلك القاموس"، للكوكباني – في التّعريب والمُعرّب (حاشية ابن بَريّ على كتاب "المعرب"، لابن الجواليقي) – "كتاب العين"، المنسوب للخليل بن أحمد الفراهيدي، بالاشتراك مع الدكتور مهدي المخزومي – كتاب الكتّاب"، لابن درستويه، بالاشتراك مع الدكتور عبد الحسين الفتلي – "كتاب النخل"، لأبي حاتم السجستاني – "كشف النِّقاب عن الأسماء والألقاب"، لابن الجوزي – "المرصع في الآباء والأمهات والبنين والبنات"، لابن الأثير – "نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء"، لأبي البركات الأنباري – "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"، للفخر الرازي، بالاشتراك مع الدكتور محمد بركات أبو علي.

إبراهيم السامرائي العالم اللغوي الذي أنكره مجمع بلاده!

د. جمال العتابي

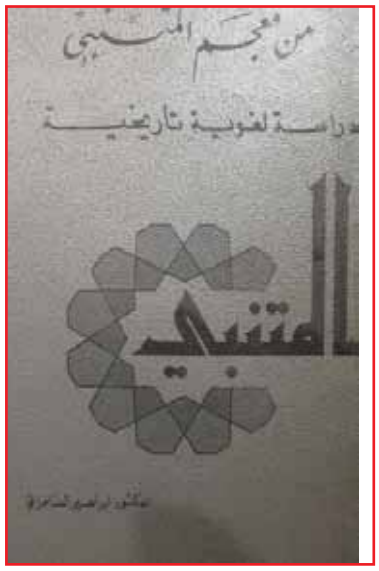

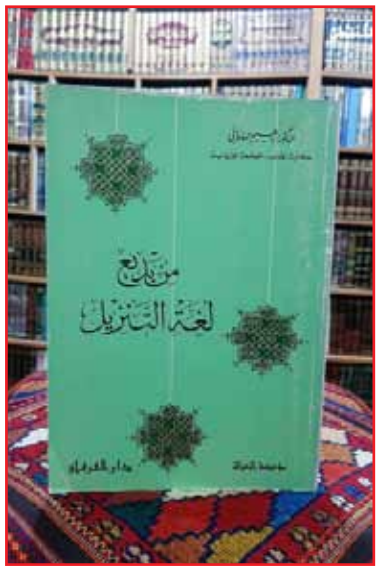

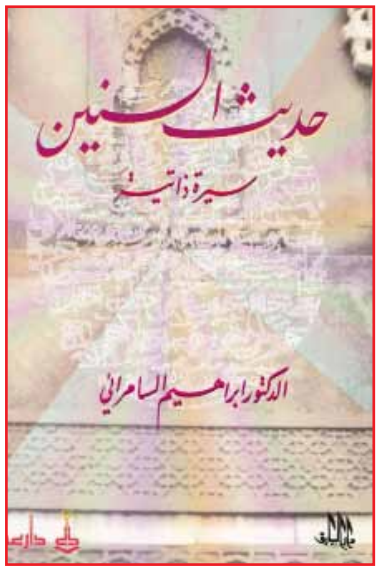

في الذاكرة أشياء تحيا مثل مذاق الخبز، لها خطى تجوب الرأس مثل هسهسة العشب، تستريح تارة، وتلوب أخرى، في خمسينات القرن الماضي، كانت الكتب تزاحم مشاجب الثياب، كان بعضها ملوناً بأسر قلبي، وبعض يمنح نفسه لكي لا يغيب.

كانت مجلة (المعلم الجديد)، أول تجاربي في التصفح، وجدتها مليئة بالرموز والألغاز، بعد سنوات وجدت ان المجلة التي تصدرها وزارة المعارف، كانت اشارة دالة على المستوى الثقافي العراقي، وتجربة فريدة جمعت كبار الاساتذة الاكاديميين في هيئة تحريرها. مصطفى جواد، كمال ابراهيم، علي جواد الطاهر، جعفر الخياط، احمد مطلوب، علي الشوبكي، ضياء ابو الحب، وكتب فيها المئات من الادباء والمفكرين آنذاك.

وكان الدكتور ابراهيم السامرائي احد أعمدة المجلة لسنوات طويلة، القراءة الاولى للمجلة أيقظت في نفسي عوامل جذب ودهشة للأسماء، امتد تأثيرها منذ تلك اللحظة حتى الافاق الرحيبة التي امتدت امامنا نحن ابناء ذلك الجيل.

الأسماء لم تكن عابرة، بل كانت موجة صاعدة في الادب واللغة والفن، في حقبة زمنية محتدمة، لتؤكد ان تيار الثقافة العراقية الجديد، اتخذ مساره العميق بين ثقافات الشعوب، وبعبارة أدق بدأ انعطافاته الجديدة، يسطع في بواكيرها نور أخاذ.

وكان صوت ابراهيم السامرائي قد بدا أشد وضوحاً وتألقا حين اكتشف وجوده خلال مشتبكات اللغة والشعر في قاعات الدرس وخارجها. فأطلّ علينا من نافذة سعة معارفه ب (٣٩) مؤلفاً، و (٢٢) كتاباً محققاً، ومئات المقالات والدراسات. هذه الاعمال لا تعبّر عن امتلاك الحلم وحده، ولا ادوات المعرفة وحدها، بل هي تؤلف إيقاعاً منسجماً مع ذاته المبدعة، حين لا يقيم له ابناء جلدته أعلى المنازل، أو تماثيل من الحب والتقدير.

في عام ١٩٤٤ بدأ السامرائي دراسته في دار المعلمين العالية، ثم أتم دراسته العليا في باريس، وعاد الى وطنه استاذاً جامعياً مرموقاً وفاضلاً، وعلما من اعلام الأدب واللغة، عاش حياته غير منحاز، صلباً عنيداً، شديد الإحساس، زاهداً في الدنيا والألقاب والمناصب، صريحا جريئاً، دمث الاخلاق، كريماً مضيافاً.

تقديراً لعلمه، انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية المصري، ومجمع اللغة العربية الأردني، ومجمع اللغة العربية بدمشق، والمجمع العلمي الهندي، والمحزن حقاً ان لا ينتخب عضواً في المجمع العلمي العراقي، لتظل في صدره صرخة محبوسة، وهو الذي حفر اسم وطنه في عروق النخل، وأنسجة الورد!!

في ايام الحروب المرعبة، يوم كانت ارض العراق ناراً ورصاصاً، تقدم ابراهيم السامرائي باستقالته الى عمادة كلية الآداب عام ١٩٨٠، لقد أصبح امراً عسيرا ان أواصل العمل، هكذا ورد في طلب الاستقالة، وغادر الى عمّان ليدرس في جامعاتها حتى عام ١٩٨٧. ثم قصد صنعاء محتجاً على اجراءات الإقامة الأردنية المتعسفة لينشد:

يا ويل من يشقى بلا وطن بل ويله يسعى الى بدل

هذا العالم الجليل عاش مغترباً على مدى سنوات طوال، وأنكره مجمع بلاده، وهي اشد جنايات السياسة على العلماء وأكثرها غباءً وحماقة، السامرائي طوّحت به ظروف الحياة وقسوتها متغربا عن بلاده غير متمكن من الاستقرار، كل معنى من معاني الكلمات التي دونها ابراهيم، تضيع هنا في اجواء القتل، وسط اصوات البنادق، وطغيان الطوائف، ما الذي يكتبه السامرائي لمدينته العمارة، التي ولد فيها؟ ما الذي يكتبه لبغداد الحزينة؟ التي خلطوا (دجلتها) بالدم!

اشتهر السامرائي لغوياً ومعجمياً، مؤمناً بتطور اللغة وانتقالها من حال الى حال، شارك في تحقيق اهم معجم لغوي هو (تاج العروس)، وأسهم في تحقيق كتاب العين للفراهيدي مع زميله مهدي المخزومي، كذلك المشاركة في تحقيق ديوان الجواهري، وعمد الى تصنيف معاجم فريدة في موضوعاتها، وهو من كبار نحاة عصره، تناول قضايا النحو، وما عسر منها على نحاتنا الأوائل، وخالف جمهرة الدارسين فيه، الذين قالوا ان النحو وضع بسبب اللحن، ورأى ان النحو نشأ بسبب من الدرس القرآني، في كتابه(من أساليب القرآن).

أسلوب السامرائي، اسلوب الادباء المجيدين، أما الشعر، فحلق به عالياً، وقل من يعرف ذلك.

كان عفيف النفس واللسان، سمحاً متواضعاً، عميق التفكير، وواسع العلم، سديد الرأي. توفي في عمان عام ٢٠٠١ ودفن فيها، بعد تشييع متواضع من قبل قلة من معارفه!

قبل أيام من وفاته، وحين اشتد به المرض، كتب:

وطني، اني حزين
ها انا ابكي عليك
فهم من قتلوك، وهم من ضيعوك
وطني يا جرحي الدامي، حين أمد اليك يدي، أرى طلك يخفق في أضلعي، ليس عدلاً ان تنام في الظلام!

سلاما لك يا صاحب المروءات، يا ابراهيم السامرائي.

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

يمكنكم متابعة الموقع الالكتروني
من خلال قراءة QR Code:

www.almadasupplements.com

Email: info@almadapaper.net

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

إبراهيم السامرائي في حديث السنين

د. سعيد عدنان

ثمّة رغبةٌ لا تخبو؛ أن يعاود المرءُ النظر في سني حياته، وأن يُعيد قراءتها من أجل أن يُسبغ عليها معنى ينسجم، بنحو ما، مع ما بلغه، وألقى رحاله عنده. وقد يفسّر أشياء مضت بضوء ممّا هو راهن؛ فإذا كان المرء كاتباً سرّه أن يروي، وأن يدوّن. لكنّه وهو يروي ما وقع له، ويُعيد قراءته؛ يقف موقفَ المنتقي؛ فيُضيء بعض الوقائع، ويدفع بأخرى إلى العَتَمة! وهو إنّما يُدني ويُبعد محكوماً بما يُنشئ معنى يرضاه!

ويتفاوت الكتّاب، الذين كتبوا في شؤون حيواتهم، في ما يبوحون به فمنهم من لا يكاد يُخفي شيئاً كمثل جان جاك روسّو في اعترافاته، ومحمّد شكري في خبزه الحافي، ومنهم من يقتصد؛ فلا يكتب إلّا وعين الرقيب مسلطة على حروفه، ومنهم من يقع بين هذا وذاك؛ فيسعى أن يُقيم ميزاناً عدلاً بين البوح والإخفاء! وكلٌ ميسّر لما جُبل عليه!

وقد كان إبراهيم السامرّائي رجلاً جليلاً من رجال العلم في العراق؛ قام على اللغة في قديمها وحديثها كأحسن ما يكون القيام فألّف، وحقّق، ونشر، وكتب بقلم الأديب المبين، وتخرّجت به أجيال من طلبة العلم؛ حتّى إذا تقدّمت به السن، واختلفت عليه الحالات، ورأى ما يسرّ، وما يسوء؛ لجأ إلى صحف يودعها شيئاً من سيرته متخفّفاً من عبء لا يفتأ يُثقل كاهله منذ أن أدرك الحياة في شؤونها وشجونها؛ لكنّه ليس في مقام من يُرخي الزمام، ويرفع الحجب؛ بل هو لا يريد من هذه الصحف إلّا أن تحمل عنه حديث الكتب وما يتّصل بها؛ يقول: (وأريد أن أُنبّه القارئ إلى أنّي رميتُ أن أثبتَ، في أثناء السيرة، الكثيرَ من حديث الكتب وما يتّصل بالناس، وابتعدتُ عمّا لدى كثير من أصحاب هذا الأدب، كأن يكون في السيرة شيء من " اعترافات " مستفيدين ذلك ممّا أثر من اعترافات الكتّاب الغربيين القدامى والمحدثين.) غير أنّ حديث الكتب متّصل، في بدئه وختامه، بحديث النفس، وكلّما مضى الكاتب مع الكتب وحديثها ردّته الحوادث إلى أشياء في نفسه؛ بعضها قديم، وبعضها ناشئ مستحدث. وحين تتامّت تلك الصحف أصدرها، في سنة ١٩٩٨، بكتاب عنوانه: (حديث السنين سيرة ذاتيّة)، ثمّ تتامّت صحف أخرى تستدرك ما فات من حديث السنين فأصدرها، في سنة ٢٠٠٢ بكتاب عنوانه: (فوات ما فات من حديث السنين).

وكلا الكتابين لم يُبنَ على صيغة السرد المتتابع، وإنّما بُني كلاهما على المحاورة بين الكاتب وصوت آخر منبثق من نفسه؛ دعاه بصاحبه؛ من أجل أن (يكون الرأي، ويكون النقد للرأي.) حتّى يستوعب هذا المنحى في الكتابة أفكار الكاتب، ويصوّر حالاته على نحو أتمّ.

رجع مع حوادث حياته إلى زمنها الأوّل؛ في الطفولة والنشأة، وربّما عاد إلى ما قبلهما حين انحدر جدّه من سامرّاء، مع أُسر سامرّائيّة أخرى، إلى مدينة العمارة، واستقرّ فيها؛ يعمل بما له من خبرة في صنوف الأعمال، ويمدّ الأواصر مع من حوله فيألف، ويُؤلف، ويضرب بجذوره في الأرض.

ويقف عند البيت الكبير الذي ضمّ أبويه، وأعمامه، ويصوّر ما كانوا عليه من فقر موجع يُثقل الأسرة كلّها، ويدفع بها إلى غوائل المرض حتّى يُعجلَ بالأب والأمّ إلى الموت، ويُصيب الأخت بداء لا يلبث، من بعد، أن يودي بها؛ فيذوق الفتى الناشئ مرارة اليُتم، ويطوي جوانحه على جروح لا شفاء له منها؛ ستصحبه في حلّه وترحاله، وتتراءى له في يقظته ومنامه. لكنّه، على ذلك كلّه، كان يقظ الفؤاد، قوي الذهن، سريع الحفظ، لا يعرف من دنياه إلّا درسه، والإقبال عليه؛ صحبه الجدُّ والاجتهادُ والمثابرة في كلّ شأن من شؤون دراسته حتّى أتمّها محرزاً رفيع المراتب. وإذ فقد الفتى الناشئ أمّه وأباه؛ بسطتْ خالته رعايتها عليه، وقامت منه ومن أخته مقام الأمّ الرؤوم.

أجرى السامرّائي الحديث عن الكتاب والدرس، وما يتّصل بهما، وكأنّه يريد أن يقول إنّ حياته إنّما هي حياة كتاب ودرس، وكلّ ما عداهما فإنّما يقع على طرفها؛ فقد أقبل وهو في باريس على دراسة العربيّة في آثارها القديمة، وتزوّد من فقه المنهج الصحيح، ورأى أن لا بدّ له من معرفة أخوات العربيّة؛ السريانيّة، والعبريّة؛ لكي يعرف العربيّة معرفة صحيحة متماسكة تردّ الفروع إلى الأصول؛ وقد أنفق في ذلك جهداً ووقتاً ومالاً حتّى استقامت له معرفة قويمة بالساميّات أفادته في أن يكتب كتابة رصينة في فقه اللغة المقارن.

وفي حديثه، من بعد، فوائد كثيرة تنبئ عن نمط التعليم في مطالع القرن العشرين، وعن طرائقه، وأشياء تنبئ عن رعاية رجال الدولة لشأن العلم وطلّابه؛ وهي صفحات تتّسم بالصدق، والوضوح، وحسن تقدير الحال.

غير أنّ الرياح ما عوّدته أن تجري رخاء، وأنّ الصفو لا يأتيه إلّا مشوباً بالكدر، وأنّ المكاره لا تكفّ عن الكمون له في ثنيّات الطريق! فقد كان من شأن عمله في كليّة الآداب بجامعة بغداد، بعد نيله شهادة الدكتوراه من فرنسا في سنة ١٩٥٦، أن جرت الأمور في نصابها؛ يدرّس النحو، وفقه اللغة، واللغة العبريّة في قسم اللغة العربيّة، ويدرّس اللغة السريانيّة في قسم الآثار؛ ومع ذلك تأليفٌ، وتحقيقٌ، وإقبالٌ على القديم والحديث معاً، وحسنُ رعاية لطلبته على اختلاف مشاربهم، ونظمٌ للشعر في معان شديدة الاتّصال به. وهو في كلّ شؤونه متحرّز متأبٍّ، ينأى بنفسه عمّا يمسّ كرامته، "يعتدّ الصيانة مغنما". وحين استحدثت الدراسات العليا في كليّة الآداب كان له خطّ، ونهج، وطلبة يحملون علمه؛ لكنّ الرياح لا تجري رخيّة في كلّ حين، وأنّ الصفو مشوب بالكدر، والمكاره مبثوثةٌ في جنبات الدرب؛ فلقد تقلّبت الأحوال على البلد، فاضطربت قيم، واختلّت موازين، وولي من الأمر مَن ليس أهله، وطغى بالناس أدناهم. يقول السامرّائي في بيان جانب من الأمر: (لقد شعرتُ أنا وجملة من أصحابي يومئذ، في مطلع سنة ١٩٨٠ أنّ البقاء حيث أنا في كليّة الآداب أمر عسير، ذلك أنّ الكليّة قد تحكّم فيها غيرُ أهل العلم. كان العميد ذلك الذي استطال فيها وعلا وتجبّر، لمكانه في الحكم، وأنّه أحاط نفسه بأعوانه فتقوّى بخيله ورَجله...

لقد جاء أوّل تسميته "عميداً" بشرٍّ ابتدعه، لقد شرع باجتماعات خاصّة مع أساتذة كلّ قسم، لم يستمع إليهم، ولكن ليلقي عليهم، أو ليصبّ زواجر وعظه، ونواشز لفظه، ينال منهم، ويحطّ من منزلتهم، فمنهم من يردّ عليه، وهذا قليل، ومنهم من يفرّ من بين يديه. يُنحي باللائمة عليهم ويتّهمهم بالتقصير، وأنّهم لا يقومون بما كُلّفوا به من واجبات.) كان هذا العميد قد ولي أمر كليّة الآداب منذ سنة ١٩٧٥ فأدارها على غير ما يقتضيه المنهج الأكاديمي في الإدارة؛ فقرّب وبعّد، وقدّم وأخّر حتّى ضاق السامرّائي، وأمثاله، وشعر ألّا مكان له فتعجّل الإحالة على التقاعد. وقد قال لي ذات يوم من تلك السنوات، وهو آخذ بيدي في ممر كليّة الآداب لا يُخفي أساه: صار الأستاذ قصير اليد!

وما أن تمّ له أمر التقاعد حتّى شرع بتهيئة أسباب الرحيل من البلد، وهو ينطوي على شجن خفيّ، وحسرة بين الضلوع؛ يقول: (وفي التهيّؤ للرحيل إثارة لأسى لا أطيقه.)، ويقول: (وأعود إلى مأساة الرحيل التي شعرتُ فيها أنّي أقصد التيه، وسيكون لي وجود آخر... والغريب عن أهله مجاهد مغبون.) لتبدأ معه غربة نائية لا عودة منها!

عمل أوّل الأمر في الجامعة الأردنيّة في عمّان، ثمّ عمل في جامعة صنعاء في اليمن، ثمّ عاد إلى الأردن؛ وهو، حيثُ حلّ، موضعُ حفاوة وتجلّة من عارفي فضله؛ لكنّ ألم الغربة والخذلان شيء لا يبارحه؛ يطفو على قلمه في شعره ونثره! فقد أمضّه أن يُضطر إلى مغادرة بلده، وأوجعه أن يلقى الإهمال من أولي الأمر، وعزّ عليه أن يكون عضواً في مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، وألّا يكون عضواً في المجمع العلمي العراقي! وساءه أن تحتفي به عمّان وتنساه بغداد!

لكنّه، مع بثّه ما يجد، لا يُطيل الشكاة؛ إذ سرعان ما يرجع إلى حديث الكتاب والدرس، ودروب المعرفة؛ بل إنّ بثّه وشكاته إنّما هما من الأدب الرفيع في الإلماح، والإشارة، والاقتباس من الذكر الحكيم بما ينسجم مع سياق القول، والتمثّل بأبيات من الشعر تصوّر الحال وتنبئ عن طويّة النفس كتمثّله بقول الشاعر، وهو في مقام التحنّن إلى بلده:

اقرأ على الوشل السلامَ وقل له... كلُّ المشارب مذ هُجرتَ ذميمُ

وكتمثّله بقول الآخر في المقام نفسه:

ذمّ المنازلَ بعد منزلة اللوى... والعيشَ بعد أولئك الأيّام

كان إبراهيم السامرّائي قد ولد في سنة ١٩٢٢ في مدينة العمارة، وتوفّي في سنة ٢٠٠١ في مدينة عمّان، وبين التاريخين حياة كريمة حافلة بالجدّ والإخلاص والمثابرة، يزينها الصدق والإباء؛ لم توهن العقبات منها؛ حتّى إذا أفلتْ وطُويتْ صفحتها كان في سجلّها ما يزيد على مئة كتاب بين تأليف وتحقيق، كلّها من عيون الآثار!

وبعد؛ فإنّ (حديث السنين) نمط فريد في السيرة يكتبها صاحبها مقتصداً في البوح، مفصّلاً في المعارف..

"20عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

عراقيون

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون